من رسائل شيخ الإسلام
(٢)

الزهد والورع والعبادة

تأليف
شيخ الإسلام ابن تيمية

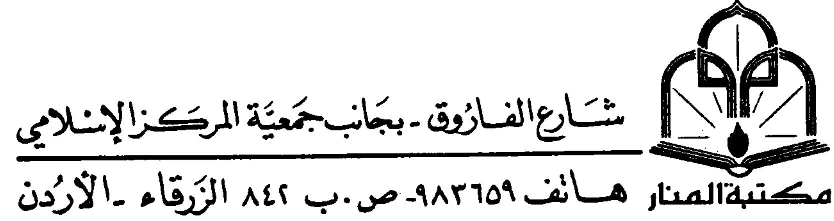
تحقيق
حماد سلامة

إشراف
الدكتور محمد عويضة



الزُّهْدُ وَالوَرَعُ وَالعِبَادَةُ

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م



المقـــدّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه الغر الميامين ومن تبعهم إلى يوم الدين، وبعد:

فلا شك أننا نعيش في عصر يكتظ بالكثير من المغريات والأهواء والفتن والشهوات وطرق الضلال والغي التي قد تنجذب لها بعض النفوس فتميل عن الصراط المستقيم والنهج القويم الذي أراده لها خالقها عز وجل، وارتضاه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، لذا فإن النفس البشرية بحاجة ماسة لمن يحذرها من خطر مثل هذه الشهوات والأهواء، ويرشدها لطرق الزهد والورع المشروعة في الدنيا، وينبهها للعبادة المشروعة والتقوى وتزكية النفس والسمو بها وترك المحرمات وفعل المأمورات ويوصيها بما فيه صلاح الدين والدنيا، ولا شك أن شيخ الإسلام ابن تيمية قد تحدث في هذه الأمور وغيرها حديث العالم المتبحر الذي ينهل من معين الثقافة الإسلامية الواسعة الذي لا ينضب، وعلى هذا الأساس اخترنا بعض الفصول والرسائل التي تحدث فيها الإمام ابن تيمية عن الزهد والورع والعبادة ونحو ذلك في مجلد السلوك من مجموع الفتاوى وقمنا بخدمتها كما يلي:

١ ــ الترجمة المختصرة لابن تيمية.
٢ ــ تخريج الآيات القرآنية الكريمة.

٣ ـ تخريج الأحاديث الشريفة تخريجاً وسطاً فلا هو طويل ممل ولا قصير مخل.

٤ ـ الترجمة لبعض الأعلام الذين ورد ذكرهم.

٥ ـ شرح المفردات الغريبة.

٦ ـ وضع عناوين داخلية للموضوعات.

٧ ـ وضع فهارس للآيات والأحاديث والموضوعات.

ونسأل الله أن يكون عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يُنتفع به وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

حمّاد سلامة

ترجمة ابن تيمية

هو أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بـن أبـي القاسم . الخضـر النميري الحـراني الـدمشقي الحنبـلي، أبـو العبـاس تقي الـدين ابن تيمية: الإمام شيخ الإسلام، ولد في حران سنة ٦٦١هـ وتحوَّل به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر. وطلب إلى مصر من أجل فتوى أفتى بها فقصدها فتحامل عليه جماعة من أهلها فسجن مدة ونُقل إلى الإسكندرية ثم أطلق سراحه، فسافر إلى دمشق سنة ٧١٢هـ واعتقل بها سنة ٧٢٠هـ وأطلق ثم أعيد، ومات معتقلاً بقلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ فخرجت دمشق كلها في جنازته. كان كثير البحث في فنون الحكمة داعية إصلاح في الدين، آية في التفسير والأصول، فصيح اللسان، قلمه ولسانه متقاربان، له مصنفات كثيرة وقد جمعها تلميذه ابن القيم في رسالة له طبعها الدكتور صلاح الدين المنجد، وقد تقدمت له ترجمة وافية في الرسالة التي نشرناها له بعنوان «التحفة العراقية في الأمراض القلبية»[(١)].

---

(١) [انظر ترجمته في البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٣٧، الشذرات ج ٦ ص ٨١، فوات الوفيات ج ١ ص ٧٤، طبقات الحفاظ ص ٥٢٠، والعبر للذهبي ج ٤ ص ٨٤، الأعلام ج ١ ص ١٤٤، وله ترجمة مستفيضة في المطولات].

الفَصلُ الخَامِسُ

[الوصية الصغرى:]

سُؤَالُ أبي القَاسِمِ المغربي[1]

يتفضل الشيخ الإمام بقية السلف، وقدوة الخلف، أعلم من لقيت ببلاد المشرق والمغرب، تقي الدين أبو العباس «أحمد بن تيمية» بأن يوصيني بما يكون فيه صلاح ديني ودنياي، ويرشدني إلى كتاب يكون عليه اعتمادي في علم الحديث، وكذلك في غيره من العلوم الشرعية وينبهني على أفضل الأعمال الصالحة بعد الواجبات، ويبين لي أرجح المكاسب، كل ذلك على قصد الإيماء والاختصار، والله تعالى يحفظه. والسلام الكريم عليه ورحمة الله وبركاته.

فأجاب:

الحمد لله رب العالمين.

[وصية الله في كتابه:]

أما «الوصية» فما أعلم وصية أنفع من وصية الله ورسوله لمن عقلها واتبعها. قال تعالى: ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾[2].

[وصية النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ:]

ووصى النبي صلى الله عليه وسلم معاذاً لما بعثه إلى اليمن فقال:

---

(١) تسمى «الوصية الصغرى». «من هامش مجموع الفتاوى»، ج ١٠ ص ٦٥٣».

(٢) الآية ١٣١ من سورة النساء.

«يا معاذ: اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[1].

وكان معاذ رضي الله عنه من النبي صلى الله عليه وسلم بمنزلة علية؛ فإنه قال له: «يا معاذ! والله! إني لأحبك»[2] وكان يردفه وراءه. وروى فيه: «أنه أعلم الأمة بالحلال والحرام[3]، وأنه يحشر أمام العلماء برتوة ــ أي بخطوة ــ»[4]. ومن فضله أنه بعثه النبي صلى الله عليه وسلم مبلغاً عنه داعياً ومفقهاً ومفتياً وحاكماً إلى أهل اليمن.

وكان يشبهه بإبراهيم الخليل عليه السلام، وإبراهيم إمام الناس. وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين، تشبيهاً له بإبراهيم[5].

---

(١) الحديث رواه: الترمذي في كتاب البر، باب ما جاء في معاشرة الناس، ج ٣ ص ٢٤٠، وقال: «والصحيح حديث أبي ذر»؛ وأحمد في مسنده، ج ٥ ص ٢٢٨؛ ورواه الطبراني في المعجم الصغير. انظر الروض الداني إلى المعجم الصغير للطبراني، ج ١ ص ٣٢٠.

(٢) الحديث رواه: أبو داود في كتاب الوتر، باب في الاستغفار، ج ٢ ص ١٨١؛ ومالك في كتاب الشعر، باب ما جاء في المتحابين في الله، ج ٢ ص ٩٥٤؛ وأحمد في مسنده، ج ٥ ص ٢٢٩؛ والنسائي في كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء، ج ٣ ص ٥٣ وقال عنه المنذري في الترغيب، ج ٤ ص ١٨ بإسناد صحيح؛ ورواه ابن حبان في صحيحه. انظر موارد الظمآن، ص ٦٢٢.

(٣) رواه الترمذي في كتاب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل، ج ٥ ص ٣٣٠ من حديث طويل وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث قتادة إلا من هذا الوجه، ورواه ابن ماجه في المقدمة، باب فضائل خباب، ج ١ ص ٥٥.

(٤) رواه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في تاريخه، فيما عزاه إليه الحافظ في الإصابة، ج ٣ ص ٤٠٧. ورواه ابن عساكر في تاريخه من طريق عن محمد بن الخطاب، فيما عزاه إليه ابن حجر في الإصابة، ج ٣ ص ٤٠٧؛ ورواه ابن سعد في طبقاته، ج ٢ ص ٣٤٧.

(٥) رواه أبو نعيم في الحلية، ج ١ ص ٢٣٠.

[شرح وصية الرسول:]

ثم إنه صلى الله عليه وسلم وصاه هذه الوصية، فعلم أنها جامعة. وهي كذلك لمن عقلها، مع أنها تفسير الوصية القرآنية.

أما بيان جمعها، فلأن العبد عليه «حقان»:

حق لله عز وجل. وحق لعباده. ثم الحق الذي عليه لا بد أن يخل ببعضه أحياناً: إما بترك مأمور به، أو فعل منهي عنه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اتق الله حيثما كنت» وهذه كلمة جامعة وفي قوله: «حيثما كنت» تحقيق لحاجته إلى التقوى في السر والعلانية. ثم قال: «واتبع السيئة الحسنة تمحها» فإن الطبيب متى تناول المريض شيئاً مضراً أمره بما يصلحه. والذنب للعبد كأنه أمر حتم. فالكيس هو الذي لا يزال يأتي من الحسنات بما يمحو السيئات. وإنما قدم في لفظ الحديث «السيئة» وإن كانت مفعولة، لأن المقصود هنا محوها لا فعل الحسنة، فصار كقوله في بول الأعرابي: «صبوا عليه ذنوباً من ماء»[1].

[الأشياء التي تزول بموجبها الذنوب:]

وينبغي أن تكون الحسنات من جنس السيئات، فإنه أبلغ في المحو والذنوب يزول موجبها بأشياء:

(أحدها): التوبة.

---

(١) الحديث رواه: البخاري في كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، ج ١ ص ٣٢٣؛ ومسلم في كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات، ج ١ ص ٢٣٦؛ وأبو داود في كتاب الطهارة، باب الأرض يصيبها البول، ج ١ ص ٢٦٤/٢٦٥؛ والترمذي في كتاب الطهارة، باب ما جاء في البول يصيب الأرض، ج ١ ص ٩٩ مع اختلاف في اللفظ، والنسائي في كتاب الطهارة، باب ترك التوقيت في الماء، ج ١ ص ٤٨ مع اختلاف يسير في اللفظ؛ وابن ماجه في كتاب الطهارة، باب الأرض يصيبها البول كيف تغسل.

و (الثاني): الاستغفار من غير توبة. فإن الله تعالى قد يغفر له إجابة لدعائه وإن لم يتب، فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال.

(الثالث): الأعمال الصالحة المكفرة: إما «الكفارات المقدرة» كما يكفر المجامع في رمضان والمظاهر والمرتكب لبعض محظورات الحج أو تارك بعض واجباته، أو قاتل الصيد بالكفارات المقدرة، وهي «أربعة أجناس»: هدي وعتق وصدقة وصيام.

وإما «الكفارات المطلقة» كما قال حذيفة لعمر: فتنة الرجل في أهله وماله وولده، يكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد دل على ذلك القرآن والأحاديث الصحاح في التكفير بالصلوات الخمس، والجمعة والصيام، والحج وسائر الأعمال التي يقال فيها: من قال كذا وعمل كذا غفر له، أو غفر له ما تقدم من ذنبه، وهي كثيرة لمن تلقاها من السنن خصوصاً ما صنف في فضائل الأعمال.

[العناية بمزيلات الذنوب:]

واعلم أن العناية بهذا من أشد ما بالإنسان الحاجة إليه، فإن الإنسان من حين يبلغ، خصوصاً في هذه الأزمنة ونحوها من أزمنة الفترات التي تشبه الجاهلية من بعض الوجوه، فإن الإنسان الذي ينشأ بين أهل علم ودين قد يتطلخ من أمور الجاهلية بعدة أشياء، فكيف بغير هذا؟!

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»(1) هذا خبر تصديقه في قوله تعالى: ﴿فاستمتعتم

(١) الحديث رواه: البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لتتبعن سنن من كان قبلكم» ج ١٣ ص ٣٠٠؛ ومسلم في كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، ج ٤ ص ٢٠٥٤؛ وابن ماجه في كتاب الفتن، باب =

بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم، وخضتم كالذي خاضوا﴾[1]، ولهذا شواهد في الصحاح والحسان.

وهذا أمر قد يسري في المتنسبين إلى الدين من الخاصة؛ كما قال غير واحد من السلف منهم ابن عيينة، فإن كثيراً من أحوال اليهود قد ابتلى به بعض المتنسبين إلى العلم، وكثيراً من أحوال النصارى قد ابتلي به بعض المتنسبين إلى الدين، كما يبصر ذلك من فهم دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم، ثم نزله على أحوال الناس.

وإذا كان الأمر كذلك فمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، وكان ميتاً فأحياه الله وجعل له نوراً يمشي به في الناس، لا بد أن يلاحظ أحوال الجاهلية وطريق الأمتين المغضوب عليهم والضالين من اليهود والنصارى، فيرى أن قد ابتلي ببعض ذلك.

فأنفع ما للخاصة والعامة العلم بما يخلص النفوس من هذه الورطات وهو اتباع السيئات الحسنات. والحسنات ما ندب الله إليه على لسان خاتم النبيين من الأعمال والأخلاق والصفات.

[المصائب المكفرة للذنوب:]

ومما يزيل موجب الذنوب «المصائب المكفرة» وهي كل ما يؤلم من هم أو حزن أو أذى في مال أو عرض أو جسد أو غير ذلك، لكن ليس هذا من فعل العبد.

فلما قضى بهاتين الكلمتين حق الله: من عمل الصالح، وإصلاح الفاسد قال: ﴿وخالق الناس بخلق حسن﴾[2] وهو حق الناس.

= افتراق الأمم، ج ٢ ص ١٣٢٢؛ وأحمد في مسنده، ج ٣ ص ٨٤ وليس فيه «حذو القذة بالقذة».

(١) الآية ٦٩ من سورة التوبة.

(٢) سبق تخريج الحديث ص ٨٦.

[جماع الخلق الحسن مع الناس:]

وجماع الخلق الحسن مع الناس: أن تصل من قطعك بالسلام والإكرام والدعاء له والاستغفار والثناء عليه، والزيارة له وتعطي من حرمك من التعليم والمنفعة والمال، وتعفو عمن ظلمك في دم أو مال أو عرض. وبعض هذا واجب وبعضه مستحب.

[معنى الخلق العظيم:]

وأما الخلق العظيم الذي وصف الله به محمداً صلى الله عليه وسلم[1] فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقاً، هكذا قال مجاهد وغيره، وهو تأويل القرآن، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن»[2] وحقيقته المبادرة إلى امتثال ما يحبه الله تعالى بطيب نفس وانشراح صدر.

[اسم التقوى وما يجمعه:]

وأما بيان أن هذا كله في وصية الله، فهو أن اسم تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به إيجاباً واستحباباً، وما نهى عنه تحريماً وتنزيهاً، وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد. لكن لما كان تارة يعني بالتقوى خشية العذاب المقتضية للانكفاف عن المحارم، جاء مفسراً في حديث معاذ، وكذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنهما الذي رواه الترمذي وصححه: «قيل: يا رسول الله! ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: تقوى

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ الآية ٤ من سورة القلم.

(٢) الحديث رواه: أحمد في مسنده، ج ٦ ص ١٨٨؛ ومسلم من حديث طويل في كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل، ج ١ ص ٥١٣.

الله وحسن الخلق. قيل: وما أكثر ما يدخل الناس النار؟ قال: الأجوفان: الفم والفرج»[١].

وفي الصحيح عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»[٢] فجعل كمال الإيمان في كمال حسن الخلق. ومعلوم أن الإيمان كله تقوى الله.

[شمول التقوى:]

وتفصيل أصول التقوى وفروعها لا يحتمله هذا الموضع، فإنها الدين كله؛ لكن ينبوع الخير وأصله: إخلاص العبد لربه عبادة واستعانة كما في قوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾[٣]، وفي قوله: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾[٤]، وفي قوله: ﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾[٥]، وفي قوله: ﴿فابتغوا عند الله الرزق، واعبدوه، واشكروا له﴾[٦] بحيث يقطع العبد تعلق قلبه من المخلوقين انتفاعاً بهم أو عملاً لأجلهم، ويجعل همته ربه تعالى، وذلك

---

(١) الحديث رواه: الترمذي في أبواب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، ج ٣ ص ٢٤٥ وقال: «هذا حديث صحيح غريب»؛ وابن ماجه في كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، ج ٢ ص ١٤١٨؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٣٩٢.

(٢) الحديث رواه: أبو داود في كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، ج ٥ ص ٦٠؛ والترمذي في الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، ج ٢ ص ٣١٥ وزاد: «وخياركم خياركم لنسائهم» وقال: هذا حديث حسن صحيح؛ والدارمي في كتاب الرقائق، باب في حسن الخلق، ج ٢ ص ٣٢٣؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٤٧٢ وزاد «وخياركم خياركم لنسائهم»، ولم أجده في البخاري أو مسلم بهذا اللفظ.

(٣) الآية ٥ من سورة الفاتحة.

(٤) الآية ١٢٣ من سورة هود.

(٥) الآية ١٠ من سورة الشورى؛ والآية ٨٨ من سورة هود.

(٦) الآية ١٧ من سورة العنكبوت.

بملازمة الدعاء له في كل مطلوب من فاقة وحاجة ومخافة وغير ذلك، والعمل له بكل محبوب. ومن أحكم هذا فلا يمكن أن يوصف ما يعقبه ذلك.

[أفضل الأعمال بعد الفرائض:]

وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض، فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه وما يناسب أوقاتهم، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد، لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره: أن ملازمة ذكر الله دائماً هو أفضل ما شغل العبد به نفسه في الجملة، وعلى ذلك دل حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم: «سبق المفردون، قالوا يا رسول الله! ومن المفردون؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»(١) وفيما رواه أبو داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: ذكر الله»(٢).

والدلائل القرآنية والإيمانية بصراً وخبراً ونظراً على ذلك كثيرة.

وأقل ذلك أن يلازم العبد الأذكار المأثورة عن معلم الخير وإمام

---

(١) الحديث رواه: مسلم في كتاب الذكر، باب الحث على ذكر الله تعالى، ج ٤ ص ٢٠٦٢؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٤١١؛ والترمذي في أبواب الدعوات، ج ٥ ص ٢٣٥.

(٢) هذا الحديث لم أجده في سنن أبي داود ولكن رواه مالك في الموطأ، في كتاب القرآن، باب ما جاء في ذكر الله تبارك وتعالى، ج ١ ص ٢١١؛ والترمذي في أبواب الدعوات، ج ٥ ص ١٢٧/١٢٨؛ وأحمد في مسنده، ج ٥ ص ١٩٥؛ وابن ماجه في كتاب الأدب، باب فضل الذكر، ج ٢ ص ١٢٤٥. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، قال الذهبي في التلخيص: صحيح. انظر المستدرك مع التلخيص، ج ١ ص ٤٩٦.

المتقين صلى الله عليه وسلم، كالأذكار المؤقتة في أول النهار وآخره، وعند أخذ المضجع، وعند الاستيقاظ من المنام، وأدبار الصلوات، والأذكار المقيدة مثل ما يقال عند الأكل والشرب واللباس والجماع، ودخول المنزل والمسجد والخلاء والخروج من ذلك، وعند المطر والرعد إلى غير ذلك، وقد صنفت له الكتب المسماة بعمل اليوم والليلة.

[أفضل الذكر:]

ثم ملازمة الذكر مطلقاً وأفضله «لا إله إلا الله». وقد تعرض أحوال يكون بقية الذكر مثل: «سبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله» أفضل منه.

ثم يعلم أن كل ما تكلم به اللسان وتصوره القلب مما يقرب إلى الله من تعلم علم وتعليمه، وأمر بمعروف ونهي عن منكر فهو من ذكر الله. ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض، أو جلس مجلساً يتفقه أو يفقه فيه الفقه الذي سماه الله ورسوله فقهاً فهذا أيضاً من أفضل ذكر الله. وعلى ذلك إذا تدبرت لم تجد بين الأولين في كلماتهم في أفضل الأعمال كبير اختلاف.

وما اشتبه أمره على العبد فعليه بالاستخارة المشروعة[1]، فما ندم من

---

(١) حديث الاستخارة رواه البخاري في كتاب التوحيد؛، باب قوله تعالى: ﴿قل هو القادر﴾ ج ١٣ ص ٣٧٥، عن جابر بن عبدالله ولفظه: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها كما يعلم السورة من القرآن يقول: إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل. اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علّام الغيوب. اللهم فإن كنت تعلم هذا الأمر ــ ثم يسميه بعينه ــ خيراً لي في عاجل أمري وآجله ــ قال: أوفي ديني ومعاشي وعاقبة أمري ــ فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه. اللهم إن كنت تعلم إنه شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ــ أو قال في عاجل أمري وآجله ــ فاصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضّني به.

استخار الله تعالى. وليكثر من ذلك ومن الدعاء، فإنه مفتاح كل خير، ولا يعجل فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي، وليتحر الأوقات الفاضلة: كآخر الليل، وأدبار الصلوات، وعند الأذان، ووقت نزول المطر، ونحو ذلك.

[أرجح المكاسب:]

وأما أرجح المكاسب: فالتوكل على الله، والثقة بكفايته، وحسن الظن به، وذلك أنه ينبغي للمهتم بأمر الرزق أن يلجأ فيه إلى الله ويدعوه، كما قال سبحانه فيما يأثر عنه نبيه: ﴿كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي! كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم﴾[1]، وفيما رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله[2] إذا انقطع، فإنه إن لم ييسره لم يتيسر»[3].

وقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿واسألوا الله من فضله﴾[4] وقال سبحانه: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾[5]، وهذا وإن كان في الجمعة فمعناه قائم في جميع الصلوات. ولهذا والله أعلم أمر النبي صلى الله عليه وسلم الذي يدخل المسجد أن يقول: «اللهم افتح لي أبواب رحمتك»، وإذا خرج أن يقول: «اللهم إني أسألك من

---

(١) الحديث رواه: مسلم في كتاب البر، باب تحريم الظلم، ج ٤ ص ١٩٩٤، وأحمد في مسنده، ج ٥ ص ١٦٠.

(٢) شِسْعُ النعل: قبالها الذي يُشدّ إلى زمامها والزمام السير الذي يعقد فيه الشسع [لسان العرب، ج ٨ ص ١٨٠].

(٣) الحديث رواه الترمذي في أبواب الدعوات، ج ٥ ص ٢٤٢ وقال: هذا حديث غريب.

(٤) الآية ٣٢ من سورة النساء.

(٥) الآية ١٠ من سورة الجمعة.

فضلك»[1]، وقد قال الخليل صلى الله عليه وسلم: ﴿فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له﴾[2] وهـذا أمر، والأمـر يقتضي الإيجاب فالاستعانة بالله واللجوء إليه في أمر الرزق وغيره أصل عظيم.

ثم ينبغي له أن يأخذ المال بسخاوة نفس ليبارك له فيه، ولا يأخذه بإشراف وهلع، بل يكون المال عنده بمنزلة الخلاء الذي يحتاج إليه من غير أن يكون له في القلب مكانة، والسعي فيه إذا سعى كإصلاح الخلاء. وفي الحديث المرفوع الذي رواه الترمذي وغيره: «من أصبح والدنيا أكبر همه، شتت الله عليه شمله، وفرق عليه ضيعته، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح والآخرة أكبر همه، جمع الله عليه شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»[3].

وقال بعض السلف: أنت محتاج إلى الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فإن بدأت بنصيبك من الآخرة مر على نصيبك من الدنيا فانتظمه انتظاماً. قال الله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾[4].

---

(١) الحديث رواه: مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب ما يقول إذا دخل المسجد، ج ١ ص ٤٩٤؛ وابن ماجه في كتاب المساجد والجماعات، باب الدعاء عند دخول المسجد، ج ١ ص ٢٥٤ مع اختلاف في اللفظ؛ وأبو داود في كتاب الصلاة، باب ما جاء في الصلاة عند دخول المسجد، ج ١ ص ٣١٨؛ والترمذي عن فاطمة، ج ١ ص ١٩٧؛ والنسائي في كتاب المساجد، باب القول عند دخول المسجد والخروج منه، ج ٢ ص ٥٣.

(٢) الآية ١٧ من سورة العنكبوت.

(٣) الحديث رواه الترمذي في أبواب صفة القيامة، ج ٤ ص ٥٧؛ وأحمد في مسنده، ج ٥ ص ١٨٣؛ وابن ماجه في كتاب الزهد، باب الهم بالدنيا، ج ٢ ص ١٣٧٥. قال في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(٤) الآيات ٥٦ ـ ٥٨ من سورة الذاريات.

فأما تعيين مكسب على مكسب من صناعة أو تجارة أو بناية أو حراثة أو غير ذلك، فهذا يختلف باختلاف الناس، ولا أعلم في ذلك شيئاً عاماً، لكن إذا عنَّ للإنسان جهة فليستخر الله تعالى فيها الاستخارة المتلقاة عن معلم الخير صلى الله عليه وسلم[1]، فإن فيها من البركة ما لا يحاط به. ثم ما تيسر له فلا يتكلف غيره إلا أن يكون منه كراهة شرعية.

[الكتب التي يعتمد عليها في العلوم:]

وأما ما تعتمد عليه من الكتب في العلوم، فهذا باب واسع، وهو أيضاً يختلف باختلاف نشء الإنسان في البلاد، فقد يتيسر له في بعض البلاد من العلم أو من طريقه ومذهبه فيه ما لا يتيسر له في بلد آخر، لكن جماع الخير أن يستعين بالله سبحانه في تلقي العلم الموروث عن النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه هو الذي يستحق أن يسمى علماً، وما سواه إما أن يكون علماً فلا يكون نافعاً، وإما أن لا يكون علماً، وإن سمي به. ولئن كان علماً نافعاً فلا بد أن يكون في ميراث محمد صلى الله عليه وسلم ما يغني عنه مما هو مثله وخير منه. ولتكن همته فهم مقاصد الرسول في أمره ونهيه وسائر كلامه. فإذا اطمأن قلبه أن هذا هو مراد الرسول فلا يعدل عنه فيما بينه وبين الله تعالى ولا مع الناس، إذا أمكنه ذلك.

وليجتهد أن يعتصم في كل باب من أبواب العلم بأصل مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم. وإذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه الناس فليدع بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قام يصلي من الليل: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من

---

(١) تقدم حديث الاستخارة، ص ٩٣.

الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[1]، فإن الله تعالى قد قال فيما رواه عنه رسوله: ﴿يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم﴾[2].

وأما وصف «الكتب والمصنفين» فقد سمع منا في أثناء المذاكرة ما يسره الله سبحانه. وما في الكتب المصنفة المبوبة كتاب أنفع من «صحيح محمد بن إسماعيل البخاري» لكن هو وحده لا يقوم بأصول العلم. ولا يقوم بتمام المقصود للمتبحر في أبواب العلم، إذ لا بد من معرفة أحاديث أخر، وكلام أهل الفقه وأهل العلم في الأمور التي يختص بعلمها بعض العلماء. وقد أوعبت الأمة في كل فن من فنون العلم إيعاباً، فمن نور الله قلبه هداه بما يبلغه من ذلك، ومن أعماه لم تزده كثرة الكتب إلا حيرة وضلالاً، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي لبيد الأنصاري[3]: «أو ليست التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى؟ فماذا تغني عنهم؟»[4].

---

(١) الحديث رواه: مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، ج ١ ص ٥٣٤؛ وأبو داود في كتاب الصلاة، باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء، ج ١ ص ٤٨٧؛ والنسائي في كتاب قيام الليل، باب بأي شيء تستفتح صلاة الليل، ج ٣ ص ٢١٢؛ وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء في الدعاء إذا قام الرجل من الليل، ج ١ ص ٤٣١/٤٣٢؛ وأحمد في مسنده، ج ٦ ص ١٥٦.

(٢) الحديث رواه مسلم في كتاب البر، باب تحريم الظلم، ج ٤ ص ١٩٩٤؛ وابن ماجه في كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ج ٢ ص ١٤٢٢؛ والترمذي في أبواب صفة القيامة، ج ٤ ص ٦٧/٦٨؛ وأحمد في مسنده، ج ٥ ص ١٦٠.

(٣) أبو لبيد الأنصاري: هو زياد بن لبيد بن ثعلبة بن سنان بن عامر الأنصاري البياضي. ذكره موسى بن عقبة وغيره فيمن شهد العقبة وبدراً، وذكر الواقدي وغيره أنه كان عامل النبي صلى الله عليه وسلم على حضرموت، وولاه أبو بكر قتال أهل الردة من كندة [انظر الإصابة، ج ١ ص ٥٤٠].

(٤) الحديث رواه: الترمذي في أبواب العلم، باب ما جاء في ذهاب العلم، ج٤ ص ١٤٠ وقال: «هذا حديث حسن غريب».

فنسأل الله العظيم أن يرزقنا الهدى والسداد، ويلهمنا رشدنا، ويقينا شر أنفسنا، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب والحمد لله رب العالمين، وصلواته على أشرف المرسلين.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *